



وليد العبري

إشكالية العلم واستغصاءاته على التحديات الشائعة في العصر الحديث

في مقاله «إشكالية التقدم العلمي.. دراسة في فلسفة لاري لودان»، والمنشور بمجلة «التفاهم»، يشير الكاتب أحمد عبدالفتاح محمد إلى أن الفيلسوف الأمريكي لاري لودان أوضح في كتابه «التقدم ومشكلاته» توجيه سهام النقد في فلسفة العلم المعاصر، مُعبِراً في نظريته الخاصة في المحافظة على العلم في مرحله المتقدمة ذات الطبيعة المتفردة؛ من أجل مواجهة التحديات الشائعة في العصر الحديث.

ولقد تضمّن الكتاب مَوْجِزا لنظريته المتعلقة بحل المشكلات، والاختيار العقلاني بين النظريات العلمية، وطبيعة التقدم في العلم، والموجز الآخر أخذ عنوان «تطبيقات»؛ الذي يناقش العلاقة بين التاريخ والفلسفة وعلم الاجتماع، ووجه اتهامه لفلاسفة العلم، بالانسياق وراء وجهة النظر السائدة بأن أساس الطبيعة العلمية هو البحث في أسس المشكلات، وطرقها، مع التخلي عن بعض المفاهيم الضمنية.

الكتاب نفسه له قيمة أساسية كبيرة؛ لأنه يدفع الشخص إلى إعادة التفكير في القضايا المعاصرة من منظور زاوية أخرى. وتعدّ عملية حل المشكلات بناءً على رؤى معينة ذات دور مهم في عملية التقييم؛ حيث حل المشكلة من الناحية الفلسفية يتحدد بمدى علاقتها بالتقييم النظري، وأوضح لودان أن المشكلات تنقسم إلى نوعين مهمين؛ هما: تجريبية، ومفاهيمية.

إنّ التقدم العلمي هو القضية الأساسية في المناقشات العامة، التي تتركز حول الطريقة التي يتغير بها العلم عبر الزمن. ومن هنا، يبرز دور لودان وكتابه الشهير «التقدم ومشكلاته» في إسهام إضافي لهذه القضية المعاصرة، وأوضح الفلاسفة أن العلم هو أولاً وأخيراً مجرد جهد لحل المشكلات، والهدف المحوري الذي يسعى لودان إلى أن يعالجه مُتمثلاً في تفسير فكرة التقدم في العلم، وافترض أن العلم تقدمي، وأن هذا التقدم يكمن أساساً في الاختيار بين النظريات المتنافسة، فإذا فهم الشخص النظرية التقدمية فسوف يساعده ذلك على تحديد العقلانية العلمية.

وكما يرى لودان، فإذا كانت المشكلات تمثل نقطة أساسية في التفكير العلمي؛ فإن النظريات تعد بمثابة النتيجة النهائية، وكون المشكلات تؤسس تساؤلات العلم؛ فإن النظريات تؤسس الإجابات، وتحل الغموض، وترد الفوضى إلى النظام، ولكن فيلسوف العلم المعاصر يعجز عن تقديم المعيار الملائم لحل مشكلة ما.

نحن نعلم أن العلم يزيد من مداركنا وفهمنا للأشياء والأحداث. لم ينكر لودان الإنجازات المعرفية للعلم، واعتقد أن الممارسة العلمية تجعل العلم أكثر وضوحاً إذا ما وُجد حل للمشكلة! وكل عمل -مادياً كان أو ذهنياً- يعد حلاً لمشكلة ما، وقد ذكر لودان أن المشكلة قد ترى غامضة أو غريبة، وتحتاج لأسلوب معين يمكن تطبيقه على كل المجالات.

كيف تُقدّم النظرية حلاً للمشكلات التجريبية؟ أو بمعنى آخر: كيف استطاع العلم زيادة المفاهيم والمدارك لدينا؟

يتعلق نموذج التقدم العلمي إما بالمشكلة التجريبية أو المفاهيمية؛ فالمشكلة التجريبية متمثلة في الطبيعة مما يلقت انتباهنا بغرابة، ولا بد من إيجاد حل وتفسير واضح لهذه المشكلة بعد الاقتناع من قبل العلماء، ومثال على ذلك: الأجسام الصلبة عندما تسقط نحو الأرض بانتظام مُذهل، فالمشكلة التجريبية هنا كيف ولماذا تسقط؟ انتقال الصفات من الآباء إلى الأبناء يمثل مشكلة تجريبية... وهكذا.

الوقائع تصبح مشكلات؛ فهي لا تكون مشكلات تجريبية إلا عندما نسأل عن الحل والتحليل والتفسير، وهي بدورها تقود إلى المشكلات التجريبية التي تخص الكون، أما المشاكل المفاهيمية فإما أن تكون داخلية والتي تنشأ عن التناقضات أو الخلط، بينما الخارجية تنشأ عن التعارض مع نظريات أخرى مقبولة. واستفاد لودان من إغفال الفلاسفة في أخذ المشكلات المفاهيمية في الحسبان عند عرض النظرية العلمية.

لا بد من التمييز بين النظريات العلمية الموجهة للتفسيرات، والتنبؤات التجريبية والتقاليد البحثية التي تمثل مبادئ وفروضاً. والجدير بالذكر أن التقليد البحثي أكثر شمولاً ورحابة من النظرية؛ لأنه يحدد نظرية عامة للطبيعة، وأسلوباً عاماً لحل المشكلات في إطار مجال طبيعي معين.

وإضافة لذلك، التقليد البحثي يتألف من مكونين أساسيين؛ هما: مجموعة اعتقادات عن العمليات التي تؤلف حقل البحث، ومجموعة معايير معرفية ومنهجية عن الكيفية التي يتم بها البحث، وقد ارتكز كذلك على توجهات لتطور النظرية عن طريق تحديد الكيانات الأساسية وطرق البحث الملائمة في مجال معين.

وفي رأي لودان، تكتسب النظرية كفاءة وفقاً لعدد المشكلات التي تنجح في حلها، ولا بد من مراعاة المشكلات التي عجزت النظرية عن حلها؛ فعملية التقييم تأخذ في الاعتبار المشكلات المحلولة بحيث تعد في صالح النظرية.

إنّ الجزء الثابت من العقلانية العلمية يهتم بالكفاءة، ويعني مزيداً من الحلول التي تتطابق مع معايير المجتمع وتؤطر المعايير؛ فهي تتغير من وقت لآخر، ومن جيل لآخر ومن حقبة لآخرى، وغالباً ما يقبله العلماء على أنه حل ملائم في فترة معينة يصبح غير ملائم في فترة أخرى.

يُمكننا القول بأن لودان لم يفعل شيئاً لإضعاف الرأي التقليدي، وأن تقديم التفسيرات هو الهدف الأساسي للعلم، فقد رجح وجهة النظر القائلة بأن الهدف هو حل المشكلات؛ كونه أنسب